اللغة العربية

(تابع ما قبلهُ)

[المقتطف — تناول الكاتب في مقالتهِ الماضية البحث في اسباب قصور اللغة العربية عن كفاية اهلها فذكر من ذلك مضايقة لغة العامة لها وكثرة الحاجات التي جدّت في هذا العصر وهو يستأنف كلامهُ فيما يلي :]

ثالثاً — مزاحمة اللغات الاجنبية

لهذا الزحام الشديد آثار بادية للعيان في معظم الاقطار العربية حيث ترى اللغات الاوربية تزحم لغتنا بالمناكب وتضغطها من كلّ جانب. وتسابقها حتى في مدارسنا الاميرية والاهليّة علاوة على مضايقتها لها في مدارس الاجانب المنشأة في ربوعنا على الخصوص لنشر لغاتهم بيننا وتلقين صغارنا اساليب تعلمها تكلّماً وقراءة وكتابة . وقد بلغ من سرعة شيوعها وسعة انتشارها ان عدد المتكلمين منّا بها والمطالعين لكتبها وصحفها يزيد كل يوم وهذه الزيادة من اكبر العثرات في طريق نشوء لغتنا وارتقائها . لا اقول ذلك كمن يجهل قيمة الفوائد التي ادّخرناها من تعلمنا للغات الاجنبية فان هذا من الحقائق التي لا يسع احداً منّا انكارها. ولكن هذا النفع الجزيل مصحوب لسوء الحظ بضرر غير قليل يصيب اللغة من حيث ندري ولا ندري . فباللغات الاوربية يتكلم فريق كبير منّا في بيوتهم ومخازنهم ومجتمعاتهم . وعلى تحصيلها يكب اولادهم منذ الصغر فترسخ ملكتها فيهم رسوخ النقش في الحجر ويقوى حبهم لها ويضعف ميلهم الى لغتهم فيهجرونها فتصبح غريبة حتى عند كثيرين من اهلها

رابعاً — قلة المشتغلين باللغة

يراد بالمشتغلين باللغة أولئك الذين هم اهل للوقوف على تعهّدها بما يفيض عليها شآبيب الخصب والسمة ويضمن كفايتها لاداء المآرب وقضاء المطالب . وربما صحّ ان نعبر عنهم بالمُنتجين . ونقول ان من اسباب قصور اللغة قلة الإنتاج او نقص المحصول . نعم قلّ جداً عدد الذين يهمّهم ان يبحثوا في كتبها ليستخرجوا منها ما سبقهم المتقدمون الى استنباطهِ او ليضعوا فيها ما فات المتقدمين تداركهُ. فقلّ استخدام طائفة كبيرة من الاسماء الموضوعة لكثير من المسميات . وانقطع او كاد ينقطع وضع الالفاظ الجديدة . ولا نقص

الصادر من محصول اللغة وزادت مقادير الواردات كما تقدّم الكلام اختل التوازن الذي كان قبلاً بينها وبين الصادرات . وتراكمت بضائع الواردات فغصّت بها اهراء الالسنة ومخازن الاقلام واخذ معظم الخطباء والشعراء والعلماء يخرجونها للناس معبرين عنها بما يتفق لهم من الالفاظ والتعابير التي قد يكون بعضها صحيحاً ويكون الباقي خليطاً من العامي والدخيل كما سبق القول . وقد فعلوا هذا لعجزهم عن الاتيان بافضل منهُ . واعترفوا بالعجز ولم ينكروهُ . ولكنهم لم ينسبوهُ الى انفسهم بل الى اللغة وهي منهُ براء

اما سبب قلة المشتغلين بها ونقصان محصولها فهو ان العلم في الشرق — ايّاً كان نوعهُ — باقٍ في الغالب واسطة لا غاية . ولا ينفك غير مطلوب لذاته . وسواد طلابهِ انما يقبلون عليهِ ليتجروا بهِ في مناصب الحكومة والتعليم او في الطب والمحاماة والترجمة والتأليف او الكتابة في الصحف والمجلات او في احد المصارف والشركات والمحال التجارية وغيرها من الاسواق التي تروج فيها بضاعة العلم والادب

ولا بدّ لكل من يتجر بالعلم في هذه الايام ان يُلمّ بلغة او اكثر من اللغات الاجنبية فوق المامهِ بمبادىء العلوم المختلفة . ومعظم الشبان يضطرون في الوقت الحاضر الى تقصير مدة التحصيل في المدارس فيقضون في درس مبادىء العلوم واللغات وقتاً اقصر مما كان يُقضى قديماً في تعلم اللغة العربية وحدها . وذلك لشدة غلاء اجور التعليم واثمان مواد المعيشة فصرتَ ترى كل متعلم يقضي مدة الدرس القصيرة موجهاً عنايتهُ على الخصوص الى تحصيل مبادىء العلم او اللغة التي عزم ان يشتغل بها بعد خروجهِ من المدرسة — اي يجعلها رأس مال لتجارته

ومعلوم انّ التعمق في علوم اللغة العربية والتضلع منها آخر شيء يخطر ببال تلميذ ان يتجرّد لهُ في هذه الايام . لعلمهِ انها ليست لسوء الحظ مما تقوم سوقهُ وتنفق سلعتهُ . وهبهُ كان يميل اليها فقد يحجم عن الاقبال عليها لانهُ يرى وقت تفرّغهِ لتحصيل العلوم قصيراً محدوداً وليس من الكياسة ان يضيع جانباً كبيراً منهُ في ما لا يرجى نفعهُ

خامساً — عناد اصحاب الاسلوب الصحيح

يراد باصحاب الاسلوب الصحيح جميع الشعراء والكتّاب الذين ينظمون ويكتبون في هذه الايام مراعين على قدر الامكان قواعد اللغة ومجتهدين في ان ينسجوا على منوال السهل الممتنع الذي يفهمهُ العامة ويرضى بهِ الخاصة — وعليهِ جرت مجلة المقتطف في جميع ما كتبتهُ في كل علم وفن ومطلب . فهؤلاء لهم على اللغة واهلها فضل يذكر بالشكر

على مدى الدهر. ولكنَّ كثيرين منهم يخطئون في استعمال بعض الالفاظ فيستخدمونها على خلاف ما وضعت لهُ او في ما ينافي قواعد اللغة . واذا ارادوا التعبير عن معانٍ ليس لها في محفوظهم كلمات عربية صحيحة عمدوا الى الدلالة عليها بكلمات عامية او اجنبية مقتصرين في تسويغ استعمالها على حصرها بين قوسين او ضمن علامة الاقتباس . ولمَّا كانت العصمة لله وحدهُ لم يلاموا على خطإٍ ارتكبوهُ لقلة تبحرهم في اللغة او لضيق وقتهم عن التفرّغ لتنقيح ما كتبوهُ او لغيرهما من اسباب معاثر الشعراء ومزالق الكتّاب . وانما يلامون كلَّ اللوم على ما يبدونهُ من العناد في اصرارهم على ارتكاب الخطإ واستعمال غير الصحيح بعد ما يكون احد اقطاب اللغة قد نبههم غير مرّة الى اصلاح الغلط وعرّض عليهم الفاظاً تصلح من كلّ وجهٍ للاستعمال المطلوب واقل ما في عنادهم هذا انهُ يغري من يثق بعلمهم ان يأخذ الخطأ عنهم فيكونون ضالّين ومضلّين

سادساً — رداءة الاسلوب الكتابيّ

مما يكثر عدد الصحف والمجلاّت والكتب التي ينشئها اصحاب الاسلوب الصحيح فهي اقل جدًّا مما يُكتب ويُطبع ويُنشر كلَّ يوم في اسلوب عبثت به الركاكة ولعبت واكلت عليهِ السخافة وشربت وكلهُ من حثالة المطبوعات ورذالة المنشورات . وعامة القراء — وبعض خاصتهم — لجهلهم انها من سقط المتاع يتهالكون على مطالعتها تهالك الجياع على القصاع . فيتفكهم فساد اسلوبها و يتسرّب في طباعهم ويسلبهم ما عندهم في اللغة من سلامة الذوق وحسن التناول . ويفقدهم الميل الى مطالعة ما يكتب بلغة صحيحة فاذا عرض لهم في كتاب او في صحيفة اعرضوا عنهُ لانهم لا يريدونهُ حسداً او جهلاً والناس حسّاد ما فقدوا واعداء ما جهلوا

فالمشتغلون بنشر مثل هذه الكتب والصحف يسيئون الى اللغة اساءة لا تغتفر اذ يحولون دون استعمالها على الوجه الامثل ويفسدون في يوم واحد ما يصلحهُ اصحاب الاسلوب الصحيح في سنة . ويجنون على القراء جناية كبيرة بتعويدهم مطالعة ما يجب ان يُحرَق بالنار او يُغرَق في لجج البحار

قصور اللغة خلل عارض

هذه اهمّ الاسباب الداعية لما نراهُ في لغتنا من القصور عن مجاراة اللغات الحيّة في كفاية حاجات هذه الايام . فاللغة من هذا القبيل شبيهة بجسم حيّ صحيح طرأت عليهِ

حالة مرضية فاحتاج الى علاج يستعين بهِ على استرجاع صحتهِ والتخلّص من مرضهِ . ولمّا كانت الصحة تحفظ بالمثل وتسترد بالنقيض فالوسائل المطلوبة لاصلاح اللغة وترقيتها انما هي عبارة عن مزاولة القصور الطارئ عليها بقطع اسبابهِ عنها لتسترجع كفايتها ثم تعالج بعد ذلك بما يقوّيها ويُديم ظلّ المناعة مخيّماً عليها وحائلاً دون عودة القصور اليها

لا يمكن صدّ تيّار الحاجات وزحام اللغات

ليس في الامكان صدّ تيّار ما يجدّ ويحدث من اسماء ما يكشف ويخترع ويصنع عن تدفقهِ علينا مستغرقاً أنديتنا ومستوعباً كلّ شؤون حياتنا ومحدقاً بنا من جميع جهاتنا ولا في استطاعة احد منّا منع زحام اللغات الاجنبية الآخذ كلّ يوم في الامتداد والاشتداد . وهبْنا استطعنا صدّ ذلك التيّار الدافق ومنع هذا الزحام الخانق فليس في مصلحتنا ان نجاوفي لاعتبارات لا تخفى على احد منا . ولكن اذا رأينا الخطب متفاقماً وتعذّر علينا تداركهُ من جهة واحدة فالحزم كلّ الحزم ان نبادر الى تلافيهِ من احدى جهاتهِ الاخرى . وقد تقدم منا ان من جملة اسباب القصور في لغتنا شيوع اللهجات العامية وقلة المشتغلين باللغة الفصيحة . فلنبدأ بالعلاج اي باستخدام وسائط الترقية من هذه الجهة وليكن همنا الوحيد بادئ ذي بدء ان نكافح اللهجات العامية مكافحة تقصّر ظلّ شيوعها في بيوتنا وتضيق نطاق انتشارها في المدارس والمحافل وسائر المجتمعات . وذلك بان تعود الاولاد منذ الصغر سماع النطق باللغة الفصيحة وتدرّبهم على مزاولتها في البيوت بمراقبة الآباء والامهات وفي المدارس بعناية المعلمين والاساتيذ

اما السبب الرابع وهو قلّة عدد المشتغلين باللغة فيعالج ببذل الجهد في زيادة عدد الذين يتفرّغون لسدّ ما يجدّ من الحاجات جرياً على خطة السلف في استخراج ما سبق وضعهُ واستعمالهُ او في وضع كلمات جديدة باحدى الطرق التي تقدمت الاشارة اليها حتى تعود الى اللغة كفايتها السابقة ويزول قصورها العارض فتماشي اللغات الحية في كل ما يراد بها و ينتظر منها

ولكن زيادة عدد المشتغلين باللغة مما يسهل قولهُ و يصعب — ان لم يتعذّر — عملهُ وسأستوفي الكلام عليهِ فيما بعد بعنوان انما الحاجة الى واحد

بقي من اسباب قصور اللغة عناد اصحاب الاسلوب الفصيح ورداءة الاسلوب الكتابي . وهذان يسهل زوالهما والتغلب عليهما بعد ازالة السبب الرابع

ذخائر اللغة

وان لغةً طاوعت الذين استعملوها في جميع القرون الماضية . وبما لها من المرونة العجيبة والاشتقاق الاعجب سهّلت عليهم وضع ما ارادوا من الكلمات ومكّنتهم من التعبير عن كلّ معنى في كلّ فنّ ومطلب — ان لغةً اشتملت على ما لا يحصى من المترادفات والقيود والضوابط والفروق والحدود والتعريفات لمسمّيات شتّت عن طوق الحصر — انّ لغةً فيها « التناوة »(١) لترك المذاكرة وهجر المدارسة و« الإمّع والإمّعة » لمن يتابع كل احد على رأيه ولا يثبت على شيء و« ثبت العذر » لمن لا يزلّ لسانهُ عند الخصومات و« بنكت الجاريتان » اذا خرجت كل واحدة منهما من بيتها فاخبرت صاحبتها باخبار أهلها و« بهرج الدليل بالمسافرين » اذا عدل بهم عن الجادّة القاصدة (٢) الى غيرها . « والمؤاساة » لإنزال الانسان غيرهُ منزلة نفسه في النفع لهُ والدافع عنهُ و« الإيثار » لتقديم غيرهُ على نفسه في جلب النفع ودفع الضرر و« الوارش » للداخل على القوم بلا دعوة وهم يأكلون و « الواغل » للداخل عليهم بلا دعوة وهم يشربون و« الملباجة » للأحمق الضخم القدم الجامع كلّ شرّ وغير ذلك ممّا يضيق المقام عن استيفائه — ان لغةً غنيت بذلك الاشتقاق العجيب الغريب وزينت فوق جمالها الباهر بحلى التشابيه والاستعارات والكنايات والامثال والتوريات وغيرها من انواع البديع المعنويّ التي كان خطباء العرب وشعراؤهم وكتّابهم يفتنون في استعمالها افتتانًا طالما سحر القلوب وخلب الالباب ولا يفتأ يأخذ بمجامع النفوس الى هذا اليوم — ان لغة هكذا كان شأنها في الماضي ليمكنها ان تصير كذلك في الوقت الحاضر اذا قيّض الله لها رجالاً يقتفون آثار السلف في احيائها واستيفائها ويتوفّرون على تعهدها بكل ما يضمن استمرار نموها وارتقائها. والرجال الذين هم أهل لأن تُلقى اليهم مقاليد هذا الامر الخطير ليسوا لسوء الحظ كثيرين ولكنهُ باقٍ منهم والحمد لله بقيّة تكفي لرأب الصدع وسداد الثغر

انما الحاجة الى واحد

ولا يعوزهم للشروع في العمل سوى مجمع يُدْعَون اليه لينتظم بهم عقدهُ ويلتئم شملهُ ويتألف منهم على وجه تراعى فيه الجدارة الصحيحة والاهلية الحقيقية . بحيث يكون كل

(١) ومن ذلك قولهم : — « كان فلان من العلماء فاعترت به التناوة » (٢) اي الهينة السير لا تعب فيها ولا بطء

عضو متضلعاً من معرفة اللغة وله فوق ذلك إلمام كافٍ باحد العلوم ليتمكن من وضع الكلمات والتعاريف المختصة بذلك العلم. ويسمى هذا المجمع « مجمع ترقية اللغة العربية » ويتفرّغ اعضاؤه للنظر في ما يعرضهُ عليهم المؤلفون والمترجمون والشعراء وكتاب الصحف والمجلات من الكلمات والتعابير العامية والافرنجية فيبحثون فيها ويستبدلون بها ما بقي بالمراد من الفصيح الصحيح إمّا استخراجاً وإمّا وضعاً وينشرونهُ في مجلة اسبوعية تُنشأ لهذه الغاية وتُوزّع في جميع الاقطار العربية ليطالعها الذين يهمهم الامر ويعتمدوا موضوعاتها عند الحاجة الى استعمالها

فبجمع كهذا يزول اكبر سبب من اسباب قصور اللغة وهو قلة المشتغلين بها ويتسنى الحصول على اهم عامل من عوامل اصلاحها وترقيتها لانهُ متى قُضيت بهِ حاجتها الشديدة الى من يعنى بامرها على الوجه الذي سبق بيانهُ لم يبقَ عليها خوف من مضايقة اللهجات العامية لها ولا من كثرة ما يجد من الحاجات في هذا العصر ولا من مزاحمة اللغات الاجنبية ولا من وداعة الاسلوب الكتابي وعناد اصحاب الاسلوب الصحيح. لان اللغة متى استردّت قوّتها تتغلّب على هذه الاسباب كلها وتُبيدها

وفي كلامي على اقتداء الخلف بالسلف في الاستخراج والوضع قلت ان المتأخرين كانوا يحذون حذو المتقدمين في وضع الالفاظ بعدة طرق واشرت الى التعريب بكونهِ اندر الطرق واقلها استعمالاً. هكذا كان في تلك الايام. واما الآن فلا مناص من زيادة الاعتماد عليهِ لكثرة ما يجدّ من الاشياء كما تقدّم الكلام

ومما يجب على المجمع ان يوجه التفاتهُ اليهِ هو الكلمات الكثيرة المستعملة الآن في غير ما وُضعت لهُ وليس في كتب اللغة ما يجوز استعمالها الاّ على ضعف وتكلف. ولكنها شاعت وذاعت حتى بين بلغاء الكتّاب وليس من السهل ان يستبدل بها كلمات اخرى. فمنها من الاسماء « صادرات وواردات » و« تهوية » للبيوت وما فيها من الاثاث و « تحليل » بمعناهُ العلمي والطبي و « تشريح » بمعناهُ الطبي و « تشريع » و « تنين » و « مشروع » و « إعدام » و « محطة » و « تقرير » و « عمود » و « نهر » لجزء من المكتوب او المطبوع على صفحة الصحيفة او الكتاب. ومن الافعال « تفرّج » و « تطور » و « اكتشف » وغيرها. يضاف اليها طائفة كبيرة من الكلمات المعرّبة عن اللغات الاوربية في هذه الايام. فهذه كلها يجب ان تعرض للبحث. فإما ان يُتفق على استعمالها لقلتهِ وشيوعهِ وإمّا ان يُستبدل بها غيرها وفيهِ من الصعوبة ما فيهِ

واذا تألف مجمع كهذا وقُدّر لهُ الحياة والبقاء فقد لا يقتصر في عمله على انشاء المجلة بل يستصوب التوسع فيهِ بحيث يتناول النظر في علوم اللغة عموماً وعلمَيّ الصرف والنحو خصوصاً لعلّهُ يتمكن من تهذيب بعض القواعد وتقليل الامور السماعية وتكثير ما يؤخذ بالقياس . وربما زاد على هذا كلهِ ان يُعنى بوضع معجم يفي وفاء تامًّا بحاجات هذه الايام

من ينشىء هذا المجمع ؟

أفلا تهز الاريحية واحداً او اكثر من اغنيائنا الذين يغارون على اللغة فيتبرّعوا بوقف ما يكفي ريعهُ للانفاق على هذا المجمع ؟ والاّ لم يبقَ لارواء الغليل من هذا القبيل سوى احدى الحكومات في البلدان العربية . ومن اولى من حكومة مصر بهذا الامر ؟ انها منهنّ اقدر وبشرف هذه المفخرة احرى واجدر. وقد سبق لها في خدمة اللغة العربية ما لا يُعَدّ من المآثر والمحامد التي خلدت لها الفخر واكسبتها جميل الثناء وجزيل الشكر . وهي الآن — على الخصوص — قبلة الانظار وكعبة الآمال ولعلّها اذا سُئلت هذه المكرمة لا تتأخر عن اجابة السؤال

والخلاصة

وخلاصة القول انهُ اذا تألف « مجمع ترقية اللغة العربية » على الوجه المرسوم واخذ يصدر مجلتهُ عنيَ الالفاظ والاسماء والقيود والضوابط التي تُستخرج او توضع للتعبير عمّا يجد ويحدث من المسميّات المختلفة والمعاني المتنوعة ومتضمنةً ما يبدوا لأعضائهِ ان يصطلحوهُ من خلطات اصحاب الاسلوب الصحيح او يشيروا بهِ من الطرق والوسائل التي يرونها بعد التجربة والاختبار معينة على تعميم نشر اللغة الفصحى وحلولها بالتدريج محلّ اللهجات العامية في الكلام ومحلّ الاساليب السخيفة في الكتابة فحينئذ تخلع اللغة اسمالَ القصور وترفل في حلة الكفاية ويتاح لكل كاتب او شاعر ان يجلس للكتابة او للنظم في اي موضوع عنّ لهُ فيرصف الكلام نموذجًا للرقة ومثالاً للانسجام . ويرسل النثر كمن ينثر الزهر ويقرض الشعر كمن ينظم الدر . وحينئذ نسمع ما يلتهبِ علينا الخطباء وتتلو ما تمقهُ اقلام الكتاب والشعراء وفيهِ كلهِ ترى المعنى في اللفظ كالصهباء في الاناء من حيث الصفاء والجلاء يشرق في الطروس اشراقها في الكؤوس ويفعل بالنفوس فعلها بالرؤوس

القاهرة احمد خليل داغر